القصص

صور من هوميروس

٦ ـ حروب طروادة

القربان(١)

للأستاذ دريني خشبة

لم يبق إذن على الأسطول إلا أن يقلع إلى طروادة فيدمرها تدميراً !

ولكن البحر هادئ ، والرياح نائمة ، ولا بد لهذه السفن المثقلة بالعدة والعديد من قوة هائلة تدفعها في هذا الخضم الساخر !

الأيام تمضى دون أن تستيقظ الريح !

والملال يدب في قلوب الجنـد من طول ما لبثوا في تلك الجهة من الشاطئ العابس المتجهم لا يرعون !

والميرة تكاد تنفد ! . . . . .

والخيل تملك حديدها كأنها برمت بهذا الركود !

ـ « كالخاس ! »

ـ « مولاى ! »

ـ « إذهب يا رجل فاستوح لنا أربابك ماذا تبتغى لتُطْلِق الرياح ؟ ؟ . . . . »

ـ « لبيك يا مولاى »

وانطلق عرّاف الحملة الى المعبد القريب فمكث غير قليل ، وعاد بقلبٍ موهون ، وجسمٍ مضعضع ، ووجه مُغْبر ، وجبين كاسفٍ معقد

ـ « ما وراءك يا كالخاس ؟ ! »

ـ « مولاى ! . . . . »

ـ « تكلم ! تكلم يا كالخاس ! »

ـ « الآلهة ! الآلهة عطشى يا مولاى ! »

ولم يتمالك العرّاف الشيخ أن سقط على نفسه من الاعياء ، ومما يخترم فؤاده من الهم ! وأسقط في أيدى القادة . . . وعالجوا كالخاس بالماء ، ودهنوه بالطيوب ، حتى أفاق

وقال العراف مخاطباً أجاممنون :

ـ « مولاى ؛ ابنتك يا مولاى ! »

ـ « ابنتى ؟ ! ابنتى من ؟ »

ـ « إفجنيا ! . . . »

ـ « ماذا ؟ إفجنيا مالها ؟ »

ـ « لابد من تقديمها قرباناً ! لابد من أن يُطَلّ دمها على مذبح الالـه الأكبر ! »

ـ « ولِمَهْ ؟ »

ـ « لكى تطلق الرياح من عقالها ، ولكى تكون فدى الجيش كله ، ولهيلاس جميعاً ! ! ! »

ـ « يا للهول ! لا كانت هذه الحرب ! »

وما كاد يقولها حتى تكبكب القواد حوله ، وطفقوا يترضونه : « من أجل الآلهة ، وفي سبيل الوطن ! » ، والرجل يبكى وينشج ، ويُذهب نفسه شعاعاً !!

وأمرهم أن يتركوه وحده ليرى رأيه . . . .

فلما انصرفوا دعا اليه كالخاس ، وأخذ معه في حوار طويل ، ثم رجاه أن يذهب الى المعبد فيضرع الى الآلهة ، عسى أن تقبل قرباناً آخر غير هذه الفتاة الحبيبة المنكودة ، مهما غلت قيمة هذا القربان !

---

(١) اعتمدنا في تلخيص هذا الفصل — علاوة على هوميروس — على درامة يوربيدز الخالدة (Iphigenia) ، وذلك لأن ما وصلنا من هوميروس عنها مقتضب ، فكانت درامة يوربيدز هذه ودرامته الأخرى (إفجنيا في أوليس) كالشرح المسهب لما

وعاد كالخاس ، وأخبر أن الآلهة لا تبتغي بإفجنيا بديلا !

وانهزم أجاممنون الأب ، وانتصر أجاممنون المؤمن التقي الورع ، الذي يقدس الآلهة ، ويعرف لها قدرها ، فأمر بقرطاس وقلم ، وكتب الى زوجه كليتمنسترا :

« بشراك يا حبيبتي !

أتعرفين أخيل ؟

أخيل الذي أصبح ملء الأسماع والأفواه والقلوب ! بطل هيلاس الذي وعدتنا الآلهة طروادة على يديه ! الشاب الوسيم القسيم القوي الأبي الشجاع ! يتقدم أخيل لخطبة إفجنيا ـ ابنتنا المحبوبة ـ ويود لو تزف اليه قبل أن يقلع الأسطول لتدمير طروادة ! انه لا شك سيرى في مرآة إفجنيا وطنه ، وحينئذ يكون حرباً على الأعداء ، ونقمة عليهم من السماء !

أرسليها أيتها العزيزة ، وأحب الي أن تسرعي بإرسالها من دون ما جلبة ولا عناد ، فالوقت ضيق ونحن على وشك الابحار »

(أجاممنون)

وانطلق رقيق عجوز بالخطاب الى آرجوس ... حيث تثوي كليتمنسترا في قصرها المنيف « أتريدي » مع ابنتها إفجنيا ، وأبنائها الآخرين !

وخفق قلب الفتاة حينما أخبرتها أمها أن أخيل يريد يدها . فقد كانت هيلاس كلها تتحدث باسم الفتى ، وتصلي للآلهة التي وفقته للانضمام إلى الجيوش الغازية

خفق قلب إفجنيا . . . وكأنما غرقت في لجة من الأحلام التي تجيش عادةً في قلوب العذارى ، حين يمر بهن هذا الطور الناعم الجميل من أطوار الحياة . . .

ولكن ما الذي أوحى إلى أجاممنون بهذا التدبير ؟ ولم اختار هذه الحيلة المكشوفة لاستدعاء ابنته الناعسة ؟ لا ندري !

لقد مرت أيام دون أن تحضر إفجنيا . ولم يكن الطريق طويلاً أو شاقاً بين أوليس وآرجوس حتى تتأخر كل هذه المدة . . . فهل حدث شيء ؟ . . .

وكأنما طول الانتظار قد أثار العاصفة من جديد في قلب أجاممنون الأب ! فبدا له ألا يصدع لهذا الظلم الأولي ، ولو صار بعدها زنديقاً ملحداً مطروداً من جنة الآلهة ، مغضوباً عليه من قلب الوطن ! !

وقد كان !

فانه استدعى الرقيق العجوز ، الذي كان يحمل دائماً بريد القائد العام الى آرجوس ، ودفع إليه برقمة أمر فيها ألا تحضر إفجنيا ! ! وأمره أن يسرع بها الى زوجه ، قبل أن تكون قد أخذت أهبتها للسفر !

* * *

وا أسفاه !

لقد لقي منالايوس ـ شقيق أجاممنون وزوج هيلين وملك أسبارطة ؛ والذي من أجله شبت هذه الحرب ـ الرقيق العجوز حامل الرسالة ، فاستوقفه وقرأها !

ودارت الدنيا بالملك المحزون ، واحلولكت الحياة في عينيه وقصد من فوره إلى أخيه فانتهره ، ونشبت بينهما معركة حامية من السباب والتعيير . يدفع أجاممنون عن ابنته ، وفلذة كبده ، ويفتديها بنفسه وبالدنيا وما فيها ، ويعيره منالايوس بالمروق من الدين ، وعصيان الآلهة ، وشق عصا الطاعة على السماء !

وإنهما لكذلك ، اذا برسول يعلنهما أن كليتمنسترا ، زوجة أجاممنون وابنتها إفجنيا ، تستأذنان في المثول بين يدي الملك ، ويدي القائد العام ! !

يا لسخرية المقادير ؟

يتفجر الحنان في قلب منالايوس المتحجر ، ويرق لأخيه البائس الملتاع ، فيقول له : « أخي ! أنقذها يا أخي ! انها ابنتي كما هي ابنتك ، فانقذها كما يحلو لك ! ! »

ويبهت أجاممنون لهول الموقف ، ولا يدري ماذا يقدم أو يؤخر ؛ ثم يراه واقفاً وحده يبكي . . . كما يبكي الأطفال . . . بعد إذ غادره أخوه

ويلمح زوجه مقبلة ، فيصلح من شأنه ، ويتكلف البشاشة والتبسم ، وإنها لبشاشة باكية ، وإنه لتبسم مر حزين ! !

ـ « أهلا أهلا إفجنيا ! ! مرحباً مرحباً كليتمنسترا ! سفر حميد ورحلة طيبة ! !

ـ « أين أخيل ، وماذا أعددتم للاحتفال بالعروسين ؟

ـ « أ . . . أ . . . أجل . ولكن لابد أن تعودي أنت إلى آرجوس !

ـ « أعود إلى آرجوس ! أعود وأترك ابنتى !

ـ « أجل ! تعودين وتتركين إجنيا !

ـ « والعرس ! وإعلان الخطبة على الأقل ؟ ألا أحضر شيئاً من ذلك ؟ هذا لا يكون ! لن أعود حتى أشهد كل شيء ! »

وتصر كليتمنسترا على بقائها حتى تحتفل بابنتها ، وحتى ترى إلى هـذا العسكر المجر والأساطيل المنتشرة فى البحر كالدُّبَى ، تحيّي ابنتها وتحيّي أخيل ، وترقص طرباً للعروسين ! !

ثم يحدث ما ليس فى حسبان أحد ! !

يحضر أخيل ليقابل القائد العام ، وليبدى له سخطه وسخط جنوده (الميرميدون) من طول هذا الانتظار الذى يبدو أن ليس له آخر . . . ويلح لديه فى وجوب الأقلاع الى طروادة مهما كلفهم الأمر !

وما تكاد كليتمنسترا تسمع كلام أخيل ، وتسمعه يذكر فرقة الميرميدون الشهورة فى جميع الآفاق ببسالتها وكلَفِها الخارق بالحروب ، حتى تعرفه ، وتعرف أنه أخيل . . . أخيل بعينه . . . خطيب ابنتها . . . وزوج إجنيا الحبيب !

فتتقدم إليه هاشّةً محيية ، حتى اذا أنس اليها ، بدهته بالسؤال عن العُرْس !

ـ « عرس ؟ عرس ماذا ؟

ـ « عرس ماذا ؟ ألست أخيل ! ألست قد تقدمت إلى أجا ممنون ، أمير آرجوس ، تطلب أن تكون إجنيا زوجة لك ؟ ألم تطلب يد إجنيا ؟ تكلم ! . . . »

ولكن أخيل يسمر مكانه باهتا ، لايدرى ماذا يقول ، لأنه لايعرف مما قالت السيدة شيئاً ! ! وتحملق الملكة فى أخيل طويلاً ، ويتصبب العرق من جبين إجنيا ، الفتاة البريئة ، لما ترى من حيرة أمها ، وارتباك هذا الجندى الباسق الجميل ، الذى كانت تحلم به زوجا كريماً لها ؟ !

وكأن هذا الموقف لم يرض أحداً . . . حتى الرقيق العجوز ، حامل بريد القائد العام ؛ فقد انفجر هذا الخادم الأمين من شدة الحنق ، فباح بكل شيء . . . . . ! باح بكل ما سمع من تحاور مناالابوس الملك ، وأجا ممنون القائد الأعلى ، بخصوص هذا الزواج المفترى : « مولاتى الملكة ! خذى حذرك لفتاتك المسكينة ، إنها ستذبح ! إن الكهنة الأشرار سيذبحونها اليوم ليسقوا أربابهم الظامئة من دمها الثمين ! إن أخيل الكريم لم يتقدم ليطلب يد إجنيا ! بل هو لا يعرف من أمر ذلك قليلاً أو كثيراً ! ها هو أمامك فاسأليه ! . . . »

وكأن صواعق السماء جميعاً نزلت على قلوب القوم !

لقد تحطمت كليتمنسترا !

وذاب الثلج فى عروق إجنيا !

وزلزل أجا ممنون !

أما أخيل ! فقد شُدِه ، وحجبت ناظريه سحابة كثيفة من الذهول ! ثم ما هو إلا أن أفيق فاضطربت به الأرض ، وأحنقه أن يُتخذَ مطية لهذا العبث العابث ، والسخرية المهينة !

وصاح الشاب كأنه أسد تهيج ، وانقدح شرر الغضب من عينيه ، حتى خيف أن يبطش بأجا ممنون وجنوده ، . . . كيما يثأر لاسمه ، ويطهر كرامته . . .

وانتهزتها الملكة فرصة غالية لتنقذ ابنتها من القتل ، فانبطحت عند قدمىْ أخيل تقبلهما ، وتغسلهما بدموعها ، متوسلة اليه أن يدفع عن إجنيا ، ويحول بينها وبين الموت !

ـ « فان لم يكن بحسبك أن أمرّغ خدى تحت قدميك لتكون حامىَ ابنتى ، فانها هى أيضاً تفعل مثلى يا أخيل ! انها تمرغ خُرَّ جبينها عند موطئ هذه القدم الطاهرة لتكون حاميَها وحارسها ! ! »

ـ « قنى ياسيدتى ! وكلى أباها فى شأنها ، فان لم يحل بينها وبين الموت ، فانى سأقتتل من دونها حتى أنقذها من الهلاك ، ولو حاربت هيلاس جميعاً ! ! »

* * *

وترجو الأم زوجها أن يحول بين ابنته وبين هـذه القتلة الشنيعة ؛ ويتصدع قلب أجاممنون ، وتنهمر دموعه شفقة على الفتاة التعسة ... فيعد ! ولكن ... لات حين موعد ! !

لقد عمى الى العسكر أن أخيل أنذر أن سيقف دون الدم الذى أمرت الآلهة أن يراق فتيقظوا وأحنقوا ، وذهبوا اليه يتحسسون جلية الأمر ، فصارحهم به ، فانقضوا عليه يرشقونه بألسنتهم الحداد ، ويرجونه بحجارة الشاطئ ... فولى مدبرا ! !

وريعت الأم حين رأت إلى المير ميدون — جنود أخيل الأمناء — يرجون سيدهم فيمن يرجه من الجنود الآخرين ، فعوّلت على أن تحمل السلاح وتقف الى جانبه ، تذود هؤلاء الوحوش ! !

ولكن إفجنيا الصغيرة ! إفجنيا الفتاة ! إفجنيا العظيمة ! وقفت فى وجه أمها ، وصرخت قائلة :

« مكانك يا أماه ! لن يموت أخيل من أجل فتاة !

من أنا حتى يفتدينى هذا البطل العظيم ؟ وما حياتى التافهة فى حياته المذخورة الغالية ؟ . . . إن رجلاً يحارب من أجل هيلاس ، أجدر بالحياة من عشرة آلاف امرأة لا يستطعن الى حربٍ من سبيل ؟

خلوا سبيل سيدكم ، فلن تفتح طروادة الا عليه ، كما أخبرت بذلك آلهتكم ! ومادام النصر معلقاً بحياتى ، فكم يبهجنى أن أفتدى الوطن ، وأرضىَ أربابى ! ! ان هيلاس كلها تنظر الىّ اليوم ! فهل نفر أكثر من أن أكون عند حسن ظنها بى ! !

أنا لها ! أنا أفديك ياوطنى ! أماه ! لا تحزنى ! أنظرى الىّ ! هأنا أبتسم للموت .... للقتل .... للذبح .... هلموا يا سادة .... هلموا ... أين المذبح ... صلوا من أجلى ... تحيا هيلاس ! .. »

وفى هذه اللحظة فقط ، تكبر إفجنيا فى عينى أخيل ، فيتمنى لو أجلت فى حياتها لتكون زوجة كريمة له ... ويعرض استعداده للمنافحة عنها بسيفه ، ولكنها تنهاه ، وتوصيه أن يعيش لوطنه ، ويذب عن بيضته ، ويحلى كاته . . .

وتنسكب دموع أخيل . . .

ويسير الجميع وراء إفجنيا العظيمة ... إلى ... المذبح ! !

فيا للفتاة . . .

ويا للأم . . .

ويا لأخيل البطل !

* * *

وتضع إفجنيا رأسها على رخامة المذبح ، ويرهف الكاهن مُدْيته . . . ولكن ؟ . . . لقد شده القوم . . . ! ونظر بعضهم الى بعض ... !

انهم ينظرون فلا يرون إفجنيا ! !

بل يرون مكانها ظبْيًا ... وشأً غريراً ! !

إذن هى المعجزة ! !

لقد تفطّر قلب ديانا الكريمة من أجل الفتاة ، فهبطت من ذرى الأولب لتنقذها ... فرفعتها الى السماء ... ثم أرسلتها لتكون راهبة معبدها المظيم فى مملكة توريس ! ![1]

وارتفعت أغانى الغوانى ...

يسبحن للآلهة المعطشى ! !

(لها بقية)

دريني خشبة

(١) الى هنا تنتهى مأساة إفجنيا فيا يتعلق بحروب طروادة ، ومن أراد مزيداً فليقرأ درامتى يوريبيدز (١ ـ إفجنيا فى توريس ، ٢ ـ إفجنيا فى أوليس) من ترجمة دانت الشعرية ، أو ترجمة جلبرت مورى النثرية

مدارس الدواوين

المدرسة الثانوية تامة الفرق بشارع نوبار رقم ٨

تليفون ٤٠٨٠٤

والمدرسة الابتدائية بشارع نوبار رقم ٥٩ ، ٦١

تليفون ٤٢٨٣٩

تقدم الطلبات على استمارة تصرف من إدارة المدرستين

تتمة اليتيمة

كتب الثعالبى تكملة ليتيمة الدهر فى جزأين استدرك فيهما ما فاته فى أجزاء اليتيمة ، ولبثت على سرّ المصون لا يعرفها إلا قليل من الأدباء حتى عنى بنشرها من نسخة وحيدة فى مكتبة باريس الأديب الفارسى الأستاذ عباس إقبال . وقد أرسل إلى القاهرة منها مائة نسخة . وهى تباع فى لجنة التأليف والترجمة . وثمن الجزءين ٤٥ قرشا

أقصوصة عراقية

نكتة العمامة

للأستاذ محمود . أ . السيد

على الشرفة الغربية الكبرى ، فى فندق دجلة الكبير ، المشرف على الصالحية وجسرها ، فى ذات ليلة قمراء من ليالى صيف عام ١٩٣٥ ، كنا جماعة صغيرة من إخوان الصفاء ، فيها طبيب وكيميائى وصحافى وأديب ؛ نحف بسيدة فاضلة ، وافدة من بلاد المجر للسياحة ودراسة تقاليد العرب ، وأطوار سكان البادية ، وأحوال العامة ، والأدب الشعبى غير المكتوب فى العراق نكرمها مكبرين همتها القعساء التى جشمتها عناء السفر الى بلادنا ، فى هذا الفصل الذى يشتد حره ؛ فهرب منه كثير من أهلها المترفين الى مصائف لبنان وغير لبنان ، فراحت تتنقل بين القبائل أياماً وأسابيع ، ثم تعود الى هذا القصر الذى أعده أصحابه نزلاً للتجار والسياح والسياسيين والعلماء الأجانب من أوربيين وأمريكيين وغيرهم ، لتدون مذكراتها العلمية ، وتسجل ما تقف عليه من قصص وأساطير ، وما يحكى لها الرواة من حكايات وروايات تستعين بها على أداء مهمتها العلمية ، ولتستريح يوماً أو أياماً قليلة ثم تعود الى زيارة القبائل والتنقل فى القرى والمدن باحثة مدونة ثم تعود . . .

ومع أنها كانت تبدو للرائى فى أقل من الأربعين من العمر ، فقد كان يعلوها جلال الشيوخ . وهى تنتمى الى « عصبة علمية » تضم رجالاً أفذاذاً من الباحثين وعلماء المشرقيات . طويلة القامة ، مغولية الملامح ، لأنها من سلالة الهون . عالمة بخمس لغات ومنها التركية الحديثة التى تعلمتها فى استانبول . وقد عرفناها فى ذلك الفندق مصادفة . وكنا نؤمه كل ليلة – فى الشتاء والصيف – لنزجى فيه بعض أوقات فراغنا بالحديث والمسامرة ، واستطلاع طلع « الغربيين » الكثيرين الذين نراهم فيه ، فنتقرب اليهم متشوفين ، متبينين نواياهم ونوايا حكوماتهم فى بلادنا ، مناظرين عنها ، ذاكرين لهم ما يخفى عليهم من محاسنها ، وما فى طبيعة قطينها وقطين الشرق كله ، وقرارات نفوسهم من سمو فى الخلق والعاطفة وقرب الى الانسانية والحق والخير ، ناعين على الغرب ماديته وحضارته الرأسمالية الاستعمارية . وكثيراً ما كنا نجادلهم عن إيمان بحقنا وبحق الشعوب المظلومة فى الحياة ، فننتصر عليهم أحياناً بقوة الحجة ، وينتصرون علينا أحياناً بالعناد والمغالطة والمكابرة وما إليها مما يتسلح الغربى به فى مناضلة الشرق اليوم

وكان اسم هذه السيدة المجرية ماجدا

قالت ماجدا تخاطبنا فى شىء من الاستغراب :

– « اليكم حادثة من حوادث قطركم هذا ما كان أغربها عندى إذ تلوتها عجلة فى هذه الجريدة الانكليزية التى تصدر عن عاصمتكم دار السلام بل التى كانت يوماً ما دار السلام »

وأخرجت جريدة « التيمس » البغدادية من حقيبتها فألقتها على المائدة التى كانت فى وسط مجلسنا مغطاة بأقداح الشاى وعدته . ثم ابتسمت وابتسمنا مدركين المعنى المقصود بقولها عن بغدادنا « التى كانت دار السلام » لأنها أصبحت دار الحرب منذ سنة ١٩١٧ ، الحرب النارية الدامية أولاً ، والحرب السياسية ثانياً ، وقالت :

– « هل يصدق أحد منا نحن معشر الأوربيين لو سمع هذا الخبر فى بلده ، إذا كان يجهل حقيقة الحياة الاجتماعية فى بلادكم : أن صبياً فى الحادية عشرة من العمر وأخاً له أصغر منه يقتلان أختاً لهما لأنها انحرفت عن صراط العفاف . هذا ما تقوله هذه الصحيفة – اليوم – عن صبيين من حى (باب الشيخ) . فوا عجباً ! حتى الصبيان يجعل منهم النخوة البدوية والغيرة قساة ذباحين ؟ »

قلت وقد بدا لى أن أهون عليها ما سمعت :

– « لقد نقلت هذا الخبر جريدة أخرى وقالت عن الصبيين القاتلين إنهما يحترفان نحر الجزور لدى جزار . وربما كان احترافهما هذه الحرفة التى ألفا فيها رؤية الدماء والضحايا من الخراف وغيرها صباح مساء ذا أثر عميق فى نفسيهما ، فهان عليهما ما فعلا . وأرجو ألا ترى سيدتى الفاضلة فى ذلك دليلاً على وجود ميل طبيعى فى مواطنينا إلى التوحش وقتل الانسان . . . وأردت أن أعلل الدوافع التى دفعت الصبيين إلى إتيان هذا الأمر ، فلم تدع لى مجالاً للكلام ، بل قالت ، وقد مضت ترتشف الشاى وتبدى

إعجاباً خارجاً عن موضوعنا بالقمر الزاهر الضيء فوق دجلة ، في سماء معروفة بجمالها لدى كل غربي سابح في البلاد العربية وبلغ بغداد :

ـ « كلا لم يخطر ببالي أن أتهم العرب العراقيين بالميل إلى التوحش وقتل الانسان لعين الأسباب التي تدفع غيرهم من أبناء البلاد المتأخرة إلى القتل وإزهاق الأرواح ظلماً وعدواناً . ولكنني استغربت أن تقع في مثل هذه الآونة مثل هذه الحادثة التي تدل على روح قديم وعادات ، كنا نقرأ في الكتب الباحثة في أحوال العرب وعاداتهم وأخلاقهم وتاريخهم أنها كانت ، وحسبنا أنها زالت من جراء الاحتكاك والاتصال بالغرب ، بعد دخول البريطانيين هذه الأقطار ، منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً ، الاتصال الذي له حكمه في تغيير العادات والأخلاق »

قال طبيب من أصحابنا باريسي التحصيل لاتيني الثقافة :

ـ « لا شك في أنه كان لدخول الانكليز بلادنا واتصال الغربيين بنا واتصالنا بهم اتصالاً لم يكن من قبل ، تأثير في تغيير بعض العادات والأخلاق في المدن الكبرى ولا سيما العاصمة ؛ ولكننا لو نظرنا ملياً في التغيير الذي حدث لوجدناه منحصراً لدى الطبقة العليا ، وبعض أبناء الطبقات الأخرى ، في الأسر التي تعددت فيها الدماء واختلف ميراث السلالات المختلفة المتواشجة بالتزاوج . فكانت النتيجة حدوث انحلال أخلاق في أفرادها ، لا نرى له مثيلاً في أبناء القبائل والأرياف والبوادي والعامة في المدن ـ الذين هم في الأصل القديم من أبناء القبائل ـ والذين ينتسب اليهم هذان الصبيان . ألا تؤيدونني في هذا الرأي يا رفاق ؟ »

سكت بعضنا ، وقال بعضنا :

ـ « بلى »

وقال أحدنا وهو الصحافي :

ـ « إن أكثر عاداتنا وتقاليدنا ـ وقولي تقاليدنا أصح من قول السيدة الفاضلة والأخ الطبيب أخلاقنا ـ لم يتغير بعد . وأعني بتلك العادات والتقاليد ما كان متأصلاً في روح الشعب ممتزجاً بدمائه منذ قرون وأزمان . فالعراق العربي الخالص في الزمن القديم الذي كان يقتل زوجه أو أية امرأة من آل بيته وذوي قرباه إذا ما حادت عن طريق العفاف واستزلها شيطان من الانس وعبث بها فأثمت معه ، هو هذا العراق العربي ـ سواء أكان خالصاً في عروبته أم لم يكن وهو يدعيها ـ الذي يعيش في القرن العشرين ، والذي يمثله خير تمثيل بطلا الحادثة التي أتاحت لنا الفرصة لهذا الحوار ، إلا ماشذ من الناس . وهؤلاء الشاذون ممقوتون مكروهون يلبسون ثياب الخزي والعار أنى حلوا وأقاموا . وقد يوجد فارق بين رجل الأمس الذي كان يقدم على القتل وسفك الدم في بيته لدرء العار عنه ، على الشبهة والظن ، ورجل اليوم الذي يتبين ويتريث حتى يأتيه اليقين بما يصح أن يدعوه إلى مالا بد له منه لكي يُجري حكم التقاليد ، ويحيا في قومه عزيزاً شريفاً لا يطأطىء رأسه العار ولا يذله ، ولكن هذا الفارق طفيف »

قالت وقد لذها الحديث وزادها الولع بتدوين الحكايات والروايات عن تقاليدنا وعاداتنا شوقاً إلى استماع شيء جديد مما يدخل فيما خضنا فيه :

— « ألا تحدثوني بحادثة من حوادث العهد السابق لعهدكم الحديث ، أسجلها إلى جانب هذه الحادثة التي سوف أستقصيها وأدونها بتفاصيلها ، فانها تغني عن كثير مما يصح أن يروى عن قوة التقاليد — على ما يسميها السيد الصحافي — وشرف العامة وغيرتهم وحرصهم على المرأة من أن تمتد اليها يد الغريب بما يشينها ويدنسها ؟ »

قلت :

— « أي عهد تعنين ؟ »

— « العهد الذي ختمته نهاية القرن التاسع عشر ؛ إذ أننا نعتبر تلك النهاية آخر خيط من الليل السابق لعهد اليقظة في بلادكم ، وبداية الاتصال بالعالم المتمدن »

قلت :

— « سأقص عليك قصة البطل الغيور عبد الحميد ، وهي قصة لحادثة واقعة في النصف أو الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، مما حكى لنا مشايخنا من حوادث بلدنا هذا ، قالوا :

نكتة سوداء من سخام القدر كانت في عمامته ذات يوم ، لم يفطن اليها ، وقد جاء القهوة كما كان يجيئها كل يوم ، مرفوعاً رأسه على الرؤوس ، مفعمة نفسه بخيلاء الفحولة وكبرياء

البطولة ، البطولة التي اعتلى عرشها المكين في البلد بحق ، فهابه الناس على اختلاف طبقاتهم ، وتناول الرواة في الأحياء أخباره في كثير من الوقائع الخطيرة التي صادف والأحداث التي شهد

وكان الشطب — وهو آلة التدخين عند القوم في ذلك الزمن — القضيب الطويل في يسراه يدخن به مفكراً صامتاً ساهما ، والدخان ينبعث من بين شدقيه كثيفاً

لقد قال له صاحبه أحمد العلوي ، وقد لقيه في الطريق قادما من بيته قبيل ساعة : « إن وسخا أو سخاماً على رأسه » ، وانصرف لطيته . . . . وكان الناظر إلى وجهه يرى الشر عليه بادياً في وضوح

وما عتم أن قام إلى بيته متثاقل الخطى ، قابضاً بيده اليمنى على خنجره ، رسول الموت الذي طالما أزهق الأرواح

وعاد بعد قليل ، فاقتعد مكانه الأول من القهوة ، وجعل يدخن ، كما كان . . .

ومر به صاحبه ، وكانت القهوة حافلة بالكهول والشيوخ ذوي النظرات القاسية والعمائم الكبيرة ، فنظر إليه قليلاً ، ثم أقبل عليه ، فجلس إلى جانبه ، ومال إليه برأسه يكلمه همساً :

« إن في عمامتك لنكتة سوداء نبهتك إليها فلم تزلها بعد »

كان الجواب نظرة تطاير منها الشرر ، ولكن أحمد لم يفقه لها معنى

وكان سكوت ، ثم قام الرجل تاركاً صاحبه جالساً في مكانه ، دهشاً ، ومشى إلى بيته متثاقل الخطى ، قابضاً بيمينه على خنجره ذلك الذي طالما أزهق الأرواح

وعاد بعد قليل ، فاقتعد مكانه الأول من القهوة ، بجانب صاحبه ، ثم جعل يدخن كما كان . . .

قال له أحمد :

ـ « غريب هذا الذي أرى منك أيها الأخ ! هل أنت آت من بيتك ؟ كيف غفلت كذلك عن إزالة النكتة من السخام التي في عمامتك ؟ »

وهنا انفجر الرجل من شدة الغيظ ، وقام على قدميه مرتجفاً ، وقد دارت به الأرض الفضاء :

ـ « ويلك لم تبق إلا أمي العجوز ! »

تلك هي القصة التي قصها علينا المشايخ فيما قصوا وحفظوا من حكايات بغداد في زمن قديم خلا

لقد نحر عبد الحميد زوجه وأخته بيده ، واحدة تلو أخرى ، كما ينحر الجزار الخراف والبقر ، ليزيل السخام من عمامته . فعمامته هي التاج ، تاج الشرف والعرض والكرامة فوق هامته في هذه الحياة ، وشرفه وعرضه وكرامته شرف أسرته وعرضها وكرامتها ، وكل أولئك من شرف قبيلته وحيه وعرضهما وكرامتهما ، فان وسخ العار ذلك التاج ودنسه فلا يطهره منه إلا الدم والموت . ولم يلم الرجل على ما فعل أحد ، لأنه فهم ما قال له صاحبه على غير حقيقته ، بل لاموا صاحبه الذي لم يستطع إيضاح ماقصد بعبارته التي توهم سامعها الاشارة والرمز إلى العاب والعار . فعبد الحميد كان يمثل العربي العراق ابن الشعب والقبائل بالأمس ، وان كان يسكن داراً في بلد لا خيمة في بادية ؛ وهذان الصبيان يمثلانه اليوم أتم تمثيل . فهما وذاك في الحقيقة واحد في ثلاثة ، وان تباعد بينهما وبينه زمانهما وزمانه »

قالت وكأنها استدرجتني الى استعلام رأي لي فيما كنا نتحدث فيه :

ـ « وما رأيك أنت في هذا العقاب الذي كانت تعاقب به المرأة عندكم اذا مازلت بها القدم ، ومازالت تعاقب به ؟ »

ـ « لا يسمي الناس قتل المرأة عندنا اذا ما أتت عقاباً ، بل يسمونه ـ بحكم العادات والتقاليد الموروثة ـ محوا للعار وتطهيراً للعرض من الدنس . وإذا كنا نعتقد أن حياة الشعب المادية هي التي تملي عليه منهاج أخلاقه وتقرر له عاداته وتقاليده . »

ـ « بلى . أعتقد ذلك . . . »

ـ « . . . فان الحياة المادية لشعبنا الفقير المسكين لم تتغير بعد تغيراً جوهرياً بالاتصال بالغرب لكي تتغير تلك العادات والتقاليد لديه ، بل تغيرت الحياة المادية في القصور ، ولدى بعض المتفرنجين من الموظفين ، وقولي هذا تعليل متمم لما كان قاله أخونا الطبيب . . . . »

(العراق ، الأعظمية) محمود . أ . السيد